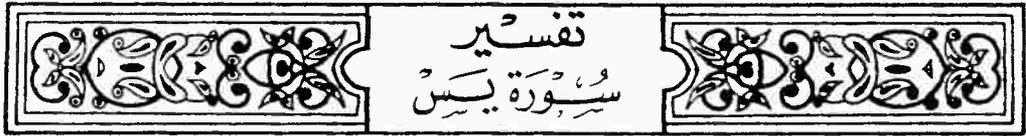


﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبِكُمْ وَلَا كُنَ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بَعِيدًا بَصِيرًا﴾^(١٥)

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبِكُمْ﴾ أي لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السماوات والأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق ﴿وَلَا كُنَ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ويوفي كل عامل بعمله فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بَعِيدًا بَصِيرًا﴾.



تفسير سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

روى الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن «يس» ومن قرأ «يس» كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات». ثم قال: هذا حديث غريب.

﴿يَسَّ﴾^(١)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾^(٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾^(٢) أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّكَ﴾ أي يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) على صراطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ أي على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم ﴿نَزِيلَ﴾ ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾^(٥) أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٥٦) صِرَاطِ اللَّهِ ﴿الشورى: 52، 53﴾ ﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾^(٦) يعني بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم، والله يقول ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولٌ اللَّهُ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله ولا يصدقون به.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ عن الحق ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ عن الحق فهم يترددون في الضلالات ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي لا ينتفعون بخير، ولا يهتدون إليه. جعل الله تعالى السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: 96، 97].

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار، ولا يتأثرون به.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ﴾ أي حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعل ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي كثير واسع حسن جميل كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: 12].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثِرَهُمْ وَكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ﴾ أي يوم القيامة. وفيه إشارة إلى أن الله يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي من الأعمال، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ قولان، أحدهما نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثاروها من بعدهم فنجزهم على ذلك أيضاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» رواه مسلم. والثاني أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية. روى الإمام أحمد عن جابر قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن يتنقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» قالوا: نعم يا رسول

الله، قد أردنا ذلك، فقال ﷺ: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم». وهذا رواه مسلم. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارِهِ تُبَيِّنُ﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور، مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى: واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَالِكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي بادروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزْنَا بِشَالِكٍ﴾ أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث. قيل: كان اسم الرسولين الأولين: شمعون ويوحنا والثالث بولص والقرية أنطاكية ﴿فَقَالُوا﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي من ربكم الذي خلقكم، يأمركم بعبادته وحده لا شريك له. وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح ﷺ إلى أهل أنطاكية.

﴿قَالُوا مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتَ إِلَّا تَكْذُوبٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿قَالُوا مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر، فلم لا يوحى إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة وهذه كقوله: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نَصُدُّوَنَا عَمَّا كَانَتْ يَدُ آبَائِنَا﴾ [إبراهيم: 10] وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٦﴾﴾ [إسراء: 94] وههنا قوله: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتَ إِلَّا تَكْذُوبٌ﴾.

﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِيَّاكُمُ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِيَّاكُمُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي أجابهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار.

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة وإن لم تطيعوا فستعلمون غب ذلك.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ نَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

فبعد ذلك قال لهم أهل القرية ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا ﴿لَئِن لَّمْ نَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عقوبة شديدة.

﴿قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

فقلت لهم رسلهم ﴿مَلَايَكُم مَّعَكُمْ﴾ أي مردود عليكم ﴿أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا، بل أنتم قوم مسرفون.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ [الفصم: 20] هو حبيب النجار ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم.

﴿اتَّبِعُوا مِنْ لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿اتَّبِعُوا مِنْ لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي على إبلاغ الرسالة ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي وما منعتني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ﴾ أي يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿ءَاتَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُّرْدِنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُعْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْفِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ءَاتَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقرع ﴿إِن يُّرْدِنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُعْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: 17] وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذوني مما أنا فيه.

﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي إن اتخذتها آلهة من دون الله.

﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي كفرتم به ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي فاسمعوا قولي، ويحتمل أن يكون خطابه للرسول بقوله: ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي الذي أرسلكم ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي فاشهدوا لي بذلك عنده.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن إسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه

من دبره، وقال الله له: ﴿أَدْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبتها، فلما رأى الثواب ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشماً، لما عاين من كرامة الله ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿يَا عَفْرَى لِي رِيقِي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليه، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة، بل الأمر كان أيسر من ذلك.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ فأهلك الله تعالى ذلك الملك وأهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية.

﴿يَنْحَسِرُوا عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿يَنْحَسِرُوا عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي يا ويل العباد ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يكذبون ويجحدون ما أرسل به من الحق.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣١﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسول كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلهم وفجرتهم من قولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الَّذِي نُمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: 37] وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله عليهم باطلهم فقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣١﴾.

﴿وَإِنْ كُلُّ لُحْمًا جُمِعَ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿وَإِنْ كُلُّ لُحْمًا جُمِعَ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها.

﴿وَوَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿وَوَايَةٌ لَهُمُ﴾ أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة، وإحيائه الموتى ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ أي

إذا كانت ميتة هامة لا شيء فيها من النباتات، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾﴾ أي جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره، لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها. وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى. واختاره ابن جرير، بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالاً أن ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنى الذي، تقديره: لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم، أي غرسوه ونصبوه.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي من زروع وثمار ونبات ﴿وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال جلّت عظمتها ﴿وَمِنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: 49].

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلَيْلٌ نَّسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى أنه من الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار: هذا بظلامه، وهذا بضياؤه، وجعلهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يُبَدِّلُ أَلْيَلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَبِيبًا﴾ [الاعراف: 54] ولهذا قال عز وجل ههنا ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلَيْلٌ نَّسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ كما جاء في الحديث «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم».

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾﴾ في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي المكاني تحت العرش كما في الحديث «مستقرها تحت العرش، أو مستقرها الزماني: منتهى

سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزمني ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿الْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركات والسكنات.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ (٣٩)

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ أي جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ أي العذق اليابس.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠)

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعده، ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ﴿وَلَا آتِلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يقول: لا ينبغي إذا كان ليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. قال مجاهد: ﴿وَلَا آتِلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يطلبان حثيثين، يسلم أحدهما من الآخر. والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ، لأنهما مسخران دائبين، يتطالبان طلباً حثيثاً. ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون، أي يدورون في فلك السماء.

﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١)

﴿أَذْ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي آباءهم ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التي أمر الله تبارك وتعالى نوحاً أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢)

﴿وَسَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ يعني بذلك الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها، أو هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح على مثل سفينة نوح.

﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ (٤٣)

﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني الذين في السفن ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ أي مما أصابهم.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٤٤)

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ وهذا استثناء منقطع، تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر، ونسلمكم إلى أجل مسمى، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى وقت معلوم عند الله عز وجل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من الذنوب ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه، وتقدير الكلام أنهم لا يجيبون إلى ذلك، بل يعرضون عنه، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطِعِم مِّن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي عن الذين آمنوا من الفقراء، أي قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمرهم به ﴿أَنْطِعِم مِّن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم، ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي في أمركم لنا بذلك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: 18].

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قال الله عز وجل: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه والله أعلم نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عاداتهم، فبينما هم كذلك إذا أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها ورفع ليتها، وهي صفحة العنق تسمع الصوت من قبل السماء، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (٥١)

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والنسلان هو المشي السريع، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَاءًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (١٣) [المعارج: 43].

﴿قَالُوا يَا بُولِئْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢)

﴿قَالُوا يَا بُولِئْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يعيشون منها، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿قَالُوا يَا بُولِئْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ قال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة، ولا منافاة إذ الجمع ممكن. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ

شَيْئًا وَلَا تُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤)

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤) [النازعات: 13، 14] وقال جلت عظمته ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: 77] ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي من عملها ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾ (٥٥)

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم ﴿فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾ أي في نعيم معجبون، أي به، أو شغلهم اقتضاض الأبقار، أو شغلوا بسماع الأوتار.

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِنُونَ﴾ (٥٦)

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ أي وحلائلهم ﴿فِي ظِلِّ﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِنُونَ﴾ الأرائك هي السرر تحت الحجال.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَالَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ (٥٧)

﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ﴾ أي من جميع أنواعها ﴿وَالَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ. روى ابن أبي حاتم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور كلها يتلألاً، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سلامة، وفاكهة خضرة، وخير ونعمة في محلة عالية هبية» قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال ﷺ: «قولوا: إن شاء الله» فقال القوم: إن شاء الله. وكذا رواه ابن ماجه في كتاب الزهد من سننه.

﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨)

﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ قال ابن عباس: فإن الله نفسه سلم على أهل الجنة، وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: 23].

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٩)

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يتميزون عن المؤمنين في موقفهم كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 28] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: 14] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾ [الروم: 34].

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِيَّ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مِّبِينٌ﴾ (٦٠)

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِيَّ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مِّبِينٌ﴾ هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان، وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن، وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهذا قال:

﴿وَأِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١)

﴿وَأِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم فسلكتم غير ذلك، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، ولهذا قال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثْلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٢)

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثْلًا كَثِيرًا﴾ خلقاً كثيراً ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعدولكم إلى اتباع الشيطان.

﴿هَلِدُوهُ جَهَنَّمَ أَلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٣)

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة، وقد برزت الجحيم لهم تقريباً وتوبيخاً ﴿هَلِدُوهُ جَهَنَّمَ أَلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٣) أي هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم.

﴿أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٤)

﴿أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٤) كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (١٣) هَلِدُوهُ النَّارَ أَلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ (١٤) [الطور: 13، 14].

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَنُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٥)

هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حيث ينكرون ما اجترحوه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ (١٦)

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ (١٦) أي لو نشاء لأضللتناهم عن الهدى فكيف يبتدون؟

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَقُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٧)

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ﴾ أهلكتناهم، أو لغيرنا خلقهم، أو لجعلناهم حجارة ﴿فَمَا اسْتَبَقُوا مُضِيًّا﴾ أي إلى الإمام ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الوراء، بل يلزمون حالاً واحداً، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٨)

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رده إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة، ثم إلى الشيخوخة، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (١٩)

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ يقول عز وجل مخبراً عن نبيه ﷺ أنه ما علمه الشعر ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زحفه، أو لم يتمه. ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ يعني محمداً ﷺ، ما علمه الله الشعر ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي وما يصلح له ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي مبين واضح جلي لمن تأمله وتدبره. ولهذا قال:

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧١)

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19] وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب، مستنير البصيرة، وقال الضحاك: عاقلاً ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي هو رحمة للمؤمنين، وحجة على الكافرين.

﴿أَوْلَوْا بِرَبِّنا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فِيمَنَّا رُكُوبَهُمْ وَمِنهَا يَأْكُؤْنَ﴾ (٧٣)

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ قال قتادة: مطبقون، أي جعلهم يقهرونها، وهي ذليلة لهم، لا تمنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه، وساقه وذاك ذليل متقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير، أو أكثر لسار الجميع بسير الصفير. وقوله: ﴿فِيمَنَّا رُكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُؤْنَ﴾ أي منها يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الانتقال إلى سائر الجهات والأقطار ﴿وَمِنهَا يَأْكُؤْنَ﴾ إذا شاؤوا نحرروا واجتروا.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٤)

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: 80] ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ أي من ألبانها وأوبالها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي أفلا يوحدون خالق ذلك، ومسخره ولا يشركون به غيره؟

﴿وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٥)

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ (٧٥)

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك، وأقل وأذل وأدحر، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ يعني عند الحساب، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم.

﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦)

﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي تكذبيهم لك، وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي نحن نعلم جميع ما هم فيه، وسنجزئهم وصفهم، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً، ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧)

جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ، وفي يده عظم رميم، وهو يفته، ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أترعم أن الله يعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم، يميتك الله تعالى، ثم يعثك ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات من آخر «يس» ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إلى آخرهن ﴿الْإِنْسَانُ﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي أول لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين.

﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨)

﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده، ولهذا قال عز وجل:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩)

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أي ذهبت، وأين تفرقت وتمزقت؟

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (٨٠)

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وبنع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد، لا يمنعه شيء. وقيل المراد بذلك: شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قذح نار، وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقذح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ

الْعَلِيمُ﴾ (٨١)

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السماوات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

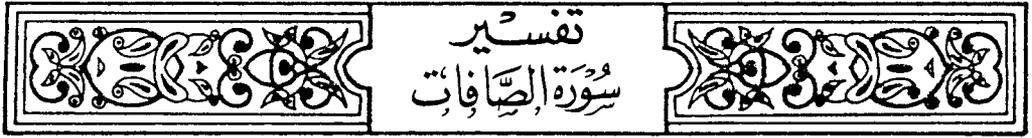
﴿كَبُرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غانر: 57] وقال عز وجل ههنا ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ يَنَّهُمْ﴾ أي مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ .

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٧﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي كلكم مذبذبا إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئا فإنما أقول له كن فيكون» .

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه ترجع العباد يوم المعاد، فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المتفضل .



تفسير سورة الصافات

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات، تفرد به النسائي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ ﴿١﴾ ﴿فَالرَّجَرِ زَجْرًا﴾ ﴿٢﴾ ﴿فَاللَّيْلِ ذِكْرًا﴾ ﴿٣﴾ ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ﴿٥﴾

روى مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء» وروى مسلم أيضاً وأبو داود والنسائي عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يتمون الصفوف المتقدمة، ويراصون في الصف» ﴿فَالرَّجَرِ زَجْرًا﴾ ﴿٢﴾ أنها تزجر السحاب، أو ما زجر الله عنه في القرآن ﴿فَاللَّيْلِ ذِكْرًا﴾ ﴿٣﴾ الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ ذِكْرًا﴾ ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ ﴿٦﴾ [المزملات: 5، 6] ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ